التفكك الأسري وعلاقته بتكوين مفهوم الذات لدى الحدث الجانح مقترف جنحة السرقة بالمغرب

- دراسة ميدانية -

العربي شرماط*

* باحث بمركز الدراسات للدكتوراه – جامعة محمد الخامس – السويسي – كلية علوم التربية – الرباط – المملكة المغربية

التفكك الأسري وعلاقته بتكوين مفهوم الذات لدى الحدث الجانح مقترف جنحة السرقة بالمغرب

- دراسة ميدانية -

الملخص_ *حاولت الدراسة الحالية الوقوف على مدى الدور الذي تلعبه التربية الأسرية، في تكوين مفهوم الذات لدى الحدث الجانح مقترف جنحة السرقة، على اعتبار أن الأسرة هي المفصل الرئيس في حياة الحدث نحو البناء أو الهدم، وكذلك إبراز المهارات الذاتية المرتبطة بشخصية أفراد العينة المفحوصة. وقد استخدم الباحث في هذه الدراسة، "دراسة الحالة" والمقابلات والملاحظات المباشرة. أما عينة الدراسة، فتتكون من نموذجين من الأحداث الجانحين الذين يشكلون مجتمع البحث، مقترفي جنحة السرقة، والذين لا تتجاوز أعمارهم 18سنة، المودعون بمركز حماية الطفولة. وأشارت أهم نتائج الدراسة، إلى أن العينة المفحوصة تعيش في جو أسري متصدع ومتفكك، يتجلى في غياب الأب، وسوء العلاقة بين الآباء والأمهات، والمعاملة القاسية اتجاه الأبناء. ومن أهم توصيات الدراسة، تفعيل الخدمات الاجتماعية الموجهة للأسرة وخاصة المعوزة منها، وتعزيزها بأخصائيين من النواحي القانونية، والاجتماعية، والنفسية. واعتماد برامج تعليمية خاصة بالتربية الأسرية كمادة أساسية ضمن البرامج المدرسية؛ والعمل على تطوير البرامج التربوية المعتمدة داخل المؤسسات الإصلاحية، لأن هذه الأخيرة تظل منحصرة في دائرة سلوكية ظاهرية محضة، ولم تحاول النفاذ إلى الجوانب السيكولوجية للمفحوص، وفي الأخير تفعيل تدبير الرعاية اللاحقة.*

الكلمات المفتاحية: *تفكك الأسرة، الذات، الحدث، الجنوح، السرقة.*

1. المقدمة

إذا كان من المسلم به أن مستقبل الأمم رهين بالنهوض بأوضاع أبنائها، فإننا بدأنا نشهد في السنوات الأخيرة، أن الإنسان المعاصر، يولي اهتماما خاصا برعاية الأطفال، وذلك بتوفير الحماية الكافية لهذه الشريحة.

إلا أنه، ومن جراء ما تتعرض له فئة عريضة من هذه الناشئة، من حالات التشرد، والتفكك الاجتماعي، إلى غير ذلك من المشاكل التي برزت على السطح خلال القرون الأخيرة، فقد دفع شريحة من هذه الفئة الاجتماعية إلى سلوك طريق الانحراف، وبالتالي السقوط في بؤر الجنوح.

وهو ما يتطلب من جميع الباحثين، والمهتمين، والأخصائيين، في علوم التربية بجميع مشاربهم، صب اهتماماتهم الموضوعية في معالجة ظاهرة جنوح الأحداث، التي أصبحت تؤرق بال كل هؤلاء المتدخلين، ولاسيما في مجالات القانون، والسوسيولوجيا، والسيكولوجيا لهذا العصر، على اعتبار أن هذه الظاهرة، صارت تشكل عائقا حقيقيا في وجه عملية التنمية، في مفهوما الشمولي.

ولسبر أغوار بواعث ظاهرة جنوح الأحداث، فإن الأمر يستدعي دراسة مفهوم الذات لدى الحدث الجانح، تبعا لمجموعة من التجليات، كالإدراك، وتمثله لذاته، وتمثله للآخرين، بما فيهم القائمين بمهمة تربيته، سواء داخل الأسرة، أو المدرسة، أو المؤسسات الاجتماعية، التي تساهم في القيام بدور التنشئة الاجتماعية، وذلك لما قد يكون لكل متدخل في هذا المجال، من تأثير فعال، في مستقبل الحدث، ولما قد يتركه من بصمات واضحة، في صوغ الشخصية، وفي توجيهها للسلوك المتوافق، أو اللامتوافق، وذلك من خلال التركيز على دراسة وتحليل موضوع دور الأسرة، في تكون مفهوم الذات لدى الحدث الجانح، مقترف جنحة السرقة.

2. مشكلة الدراسة

حاول الباحث الكشف عن العلاقة القائمة بين مفهوم الذات لدى

الحدث الجانح، مقترف جنحة السرقة"، وتفكك الأسرة، من خلال طرح التساؤلات التالية:

أ. أسئلة الدراسة

1- هل المشاكل المادية والاقتصادية للأسرة، لها علاقة بتكوين صورة سلبية، عن مفهوم الذات لدى الحدث الجانح مقترف جنحة السرقة؟

2- هل يساهم سوء معاملة الوالدين، في تكوين صوره سلبية عن مفهوم الذات لدى الحدث الجانح، مما يدفع به، إلى اقتراف جنحة السرقة؟

3- هل الطلاق، أو الانفصال، أو غياب أحد الوالدين يساهم في تكوين مفهوم سلبي للذات، لدى الحدث الجانح، يدفعه إلى ارتكاب جنحة السرقة؟

4- هل الإدمان على المخدرات، له ارتباط بتكوين مفهوم الذات لدى الحدث الجانح، يسهل وقوعه في جنحة السرقة؟

لقد ركز الباحث في دراسته الحالية على جنحة "السرقة"، على اعتبار أن هذا الفعل المخالف للقانون، يشكل المرحلة الأولى في مشوار الانحراف، لدى الحدث الجانح، كما أن هذا الفعل الجرمي، يكون ملازما بمجمل الأفعال الإجرامية الأخرى.

وللإجابة على هذه التساؤلات، فقد اعتمد الباحث في هذه الدراسة، المنهج الوصفي التحليلي، موظفا، الملاحظة المباشرة، والمقابلة الموجهة، مع أداة الاستمارة، إضافة إلى اعتماد دراسة الحالة، وذلك للكشف عن مدى علاقة التفكك الأسري، بتكوين مفهوم الذات لدى الحدث الجانح، مقترف جنحة السرقة.

ب. التعريفات الإجرائية

أ. التفكك الأسري: ونعني به انحلال بنية الأسرة بوفاة الأبوين، أو أحدهما، أو غيبة أو بالطلاق، أو بتعدد الزوجات، أو بتغيير الأزواج أو الزيجات.

ب. الأسرة: هي مجموعة تتكون من الزوج والزوجة والأبناء، يعيشون في منزل واحد، تربطهما رابطة الدم، لها كيان مستقل في المجتمع، وتقوم بتوفير الحماية والأمن والتنشئة الاجتماعية للأبناء.

ج. مفهوم الذات: هو ذلك المفهوم الذي يكونه الفرد عن نفسه، باعتباره كائنا بيولوجيا، واجتماعيا، أي مصدرا للتأثير بالنسبة للآخرين.

ح. الحدث: تشير كلمة حدث في اللغة العربية إلى صغير السن، وتستعمل خصوصا في المجال القانوني أكثر من غيره، وبهذا المعنى تعني صغير السن الذي لم يبلغ بعد مرحلة التمييز، ولم يتجاوز سن الرشد الجنائي، والذي تحدده أغلب التشريعات في سن الثامنة عشر، حيث يعتبر العمر الزمني معيارا أساسيا لتحديد سن "الحداثة". ولقد اختلفت القوانين والتشريعات في تحديد سن "الحدث". ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف، فإنه يصعب وضع تعريف موحد "للحدث" إلا في إطار البيئة الثقافية والاجتماعية والقانونية لمجتمع محدد. كما أن القواعد التي تحكم مسؤولية الأحداث هي قواعد خاصة تختلف عن تلك التي تحدد مسؤولية البالغين العقابية. وتنبغي الإشارة إلى أن هذا المفهوم لا يستعمل إلا في ارتباط مع مفهوم "الجنوح"، والذي سيعمل الباحث على تحديده بنوع من الإيجاز.

د. الجنوح: يعتبر الجنوح تعبيرا عن اضطراب نفسي، يميز شخصية الجانح، ويؤدي إلى سوء التكيف. ويعتبر الحدث جانحا، إذا ما استمر في إتيان سلوك لا اجتماعي متطرف، ومن مظاهر السلوك الجانح، العناد، والتحدي، والتخريب، والسرقة، والاعتداءات الجنسية، والتشرد، والرسوب المتعمد، والهروب من المدرسة، وجميعها يعبر في أساسه عن الخوف، والقلق، وكذا الشعور بعدم الأمن.

وغالبا ما يوصف الأحداث الجانحون، أنهم ضحايا ظروف خاصة، اتسمت بعدم الاطمئنان والاضطراب الاجتماعي، لأسباب متعلقة بالانخفاض الكبير لمستوى المعيشة الذي يعيشون فيه. ومن خلال ما سبق يمكن استخلاص التعريف الإجرائي التالي: أن الجنوح ما هو إلا انعكاس لسوء التوافق النفسي والانفعالي للحدث الجانح، والذي يظهر في عدم قدرته على التكيف مع المعايير الاجتماعية السائدة.

هـ. جنحة السرقة: إن الجنحة وفقا للتقسيم الثلاثي للجرائم هي

التي تتوسط المخالفة والجناية، وذلك وفقا لمدى خطورة وجسامة الجريمة. والجنحة تعرف بأنها عمل إجرامي "أصغر". وعادة يعاقب على الجنح بعقوبات أخف من عقوبات الجنايات واشد من العقوبات على المخالفات. وقد تشمل الجنح جرائم مثل: السرقة البسيطة، الاعتداء البسيط، السلوك غير المنضبط (كالمشاجرات)، التخريب البسيط لممتلكات الغير.

أما مفهوم السرقة، فيعني الاستيلاء على مال منقول مملوك للغير بنية تملكه. وجنحة السرقة من جرائم الأموال التي تتنوع من سرقة بسيطة وبالطرق العادية ، أما السرقة بطريقة غير عادية والتي تكون مقرونة بظرف من ظروف التشديد، كالتسلق، والكسر والعنف، وكذلك استعمال مفاتيح مصطنعة... فهي تكون جناية، وعقوبتها أشد من تلك المحددة للجنحة.

ويعتبر فعل السرقة مؤشر سوء تكيف الفرد السارق مع الآخرين، نتيجة لما يعانيه من علل نفسية كالحرمان، والإحباط، وعدم إشباع الحاجات. وغالبا ما يقوم الحدث بالسرقة ليلفت انتباه الوالدين إليه، كأسلوب لا شعوري في إشباع حاجته إلى الأمن الذي يشعر بأنه مهدد، أو كأسلوب للحصول على بديل مادي عن حنان الوالدين المفقود.

3. الإطار النظري والدراسات السابقة

أولا: بعض النظريات العلمية التي تناولت تفسير مفهوم الذات:

1. نظرية الذات عند كارل روجرز (1903):

تتضمن نظرية الذات عند "روجرز"، أحدث طرق العلاج النفسي، وهي طريقة العلاج الممركز حول العميل...، وبينما أصبحت الذات مركز الاهتمام في غالبية نظريات الشخصية، فقد ظهرت على أنها الركن الأساسي في نظرية روجرز الشخصية لدرجة أنها من الشائع أن تعرف باسمه [1].

ومن أبرز الأفكار في نظرية الذات، لكارل روجر، أن ما يحدد السلوك، ليس هو المجال الطبيعي الموضوعي، ولكنه المجال الظاهري (عالم الخبرة)، أي، المجال الذي يدركه الفرد نفسه. فهناك فرق بين الخصائص الطبيعية للموقف، وبين الصفات الظاهرية له، أي، بين الموقف كما ندركه، وبين ما هو في الواقع. فالأول تحدده القوى المختلفة الموجودة في المجال، الذي تحدث فيه الظاهرة، هو الذي يحدد معناها، وهذا المعنى، أو هذا الإدراك، هو الذي يحدد سلوكنا إزاء الموقف.

ومن أهم المفاهيم التي تتضمنها نظرية الذات عند كارل روجرز هي:

القيم المتعلقة بالذات، والأنا، أو بالفرد كمصدر للخبرة والسلوك [2]، كما أن الذات تتغير كنتيجة للتعلم، والنضج [3].

2- نظرية البورت (1897 ـ 1967):

يعتبر "ألبورت" الذات بمثابة المنطقة المركزية الساخنة الخاصة في حياة الفرد، وهذا الموقف من الذات، يجعلها كما الشأن لدى "وليام جيمس"، شديدة الارتباط بالتجارب المعيشية، وبالتالي فإنها تظل شعورية، وقابلة للإدراك "soi perçu" من كونها تتميز بمظهرين متكاملين، مظهر إدراكي، أو معرفي [4]. وقد تمكن "البورت" من إقامة نموذج متكامل للذات، وحاول من خلاله، أن يتعرض لمختلف الأبعاد المتضمنة في هذه الذات، تماشيا مع اعتقاده لتعددية المظاهرة الذاتية، إضافة إلى إصداره لتعاريف دقيقة، تخص كل بعد من الأبعاد التالية:

البعد الأول: تجسده حاسة الجسم، "sens corporel"، والذي يعود له السبق في النمو.

البعد الثاني: وتجسده "هوية الذات (l'identité de soi)"، التي تمثل القدرة على ضبط ما يميز الذات من خصائص ثابتة.

البعد الثالث: ويجسده حب واعتبار الذات أو إثباتها، (Amour, valorisation ou affirmation de soi)، ويمثل هذا البعد الخاصية الملازمة للذات في شتى مراحل نموها، ويساهم بشكل فعال في التشبث بالهوية.

البعد الرابع: ويجسد "امتداد الذات (l'extension de soi)"، ويشير إلى القدرة على إدخال مختلف العناصر المكونة للوسط الاجتماعي، بفضل عملية التقمص اتجاه الأشياء، والأشخاص، أي اتجاه نحو كل ما يحيط بالطفل [5].

3- نظرية وليام جيمس: "1980" William Jeams

يعتبر وليام جيمس أول العلماء الذين تناولوا "مفهوم الذات"

بالدراسة والتحليل، ولقد اهتم بمعرفة مكونات الذات ومختلف نشاطاتها ويقسم وليام جيمس الذات إلى ما يلي:

ـ الذات المادية، وتتكون من الممتلكات المادية.

ـ الذات الاجتماعية، وتتكون من نظرة الآخرين إلى الفرد، وهي تختلف باختلاف الجماعات التي يرتبط بها الفرد.

ـ الذات الروحية، وتشمل ملكات الفرد النفسية، ونزعاته، وميوله.

ـ الذات الخالصة، وهي ذلك التيار من التفكير، الذي يكون إحساس الفرد بهويته الشخصية [6].

في سياق آخر يقول وليام جيمس، إن الفرد يتعلم، ويقلد سلوكه، وحتى مشاعره، وعلى ذلك فإن حب، وعطف الوالدين للطفل، واتجاهاتهما نحوه أثناء مراحل نموه، تكون على درجة كبيرة من الأهمية، في تكوين مفهوم الذات لديه [7].

4- نظرية جورج ميد «.Mead G»:

يذهب جورج ميد، إلى أن الذات الاجتماعية، تتطور خلال سلسلة من التفاعلات الاجتماعية، التي تشتمل على المراحل التالية:

- مرحلة المحاكاة عند الطفل وتتميز هذه المرحلة ب"التقمص".
- مرحلة اللعب، وتتميز بميل الطفل إلى لعب دور الكبار.
- مرحلة معرفة قواعد اللعبة، وهي مرحلة ظهور الذات الموحدة التي تجعل الطفل قادرا على الاستجابة لاتجاهات أعضاء المجموعة التي ينتمي غليها.

إن هذه المراحل الثلاثة، هي التي تكون الذات الاجتماعية، والتي تشمل استفادة الفرد لاتجاهات الآخرين، وتشمل أيضا ما يكتسبه الفرد أثناء التنشئة الاجتماعية، وما يحققه من تكيف وتوافق [8].

ثانيا: سلوك السرقة ومفهوم الذات لدى الحدث الجانح:

إن الإدراكات الطفولية الأولى، هي القاعدة الأولى لتأسيس مفهوم الذات لدى الحدث. فهذه الإدراكات التي يحس بها، تكون بذلك سريرته، كما أن عملية الإدراك، تتأثر بمدى قدرة، واستطاعة موضوعات الحدث، على أن تبرز كمكونات لعالمه، لتصبح من وسطه، ومدى استطاعته ككائن له قدرا من الاستقلال الإدراكي، وأيضا قدرا من الأحاسيس الخاصة التي تؤسس لذات أو لسريرة منبسطة أو معقدة [9]. وبسبب ما قد يلحق هذه الإدراكات من العالم الخارجي من تأثيرات، مما قد ينشئ انعكاسات سلبية للصور، والإيحاءات الأولى للحدث، بفعل التفاعل اليومي لكل الموضوعات، التي تشكل عالمه الاجتماعي، وبالتالي يظهر لدى هذا الأخير، ما يسمى بالدفاعات التي قد تشكل التفريق، بين ما هو ذاتي سريري، ويكون مصدره اللذة، والخبرة المباشرة، مما يعزز لديه الشعور "بالأنا"، وبين ما هو موضوعي، مصدره الخبرة الخارجية، مما يولد لديه الشعور أوليا عن كيفية فصل الذات عن الموضوع، الشيء الذي يؤدي إلى بروز نوع من النكوص، أو التقمص، أو الإسقاط لديه [9].

فإقدام الطفل على السرقة، يعتبر مؤشرا على وجود خلل ما في علاقته بأسرته. وفي هذه الحالة، إن السرقة يمكن أن ينظر إليها كخطاب غير مباشر موجه للوالدين على الخصوص ليأخذا بعين الاعتبار حاجيات طفلهما ورغباته. والسرقة ليست مجرد استحواذ الطفل على ما ليس له، وإنما هي أيضا تمثل لحظة خاصة في علاقة الطفل بوالديه، يعبر من خلالها عن الخلل الذي ينتاب علاقته بهما وبباقي أفراد أسرته [11].

وقد يكون سلوك السرقة لدى الحدث، خاصة في الأسر التي تتميز بسلطوية مفرطة لأحد الوالدين أو لكليهما، هو شعور بعدم قدرته على المواجهة، والتعبير الحر عن رغباته وميوله، فيلجأ لهذا السلوك كتعبير عن رغبته في الانتقام منهما، بالنظر لتجاهلهما لرغباته وحاجاته...والشيء المسروق يعتبر بالنسبة له، رمز للسلطة التي تقهره، والمتمثلة في والده أو في أبويه معا [10].

غالبا ما يكون الطفل صورة عن ذاته من خلال تعامل أسرته معه، وعندما يقوم هذا التعامل على أساس التحقير، فإنه لن تتاح له فرصة تكوين صورة إيجابية عن ذاته، مما يولد لديه شعور بالنقص وتبخيص الذات، ويصل به الأمر أحيانا إلى إظهار نزعة "ماسوشية (Massochisme)"، تتجلى على

الخصوص في الشعور باللذة من خلال تحقير الذات وإيلامها. مما يدفع به إلى السلوكات السلبية، من بينها السرقة، التي تمنحه شعورا بالنجاح كتعويض عن ما يشعر به من نقص ودونية [10].

ومن جانب آخر، يكون الدافع إلى السرقة لدى الحدث الجانح بسبب فقدان الحب والعطف، فكأن الحدث، وقد فقد عطف والديه، يحاول الاستحواذ على شيء ما كبديل عن العطف الذي افتقده. وفي هذا الخصوص يشير "لوزيل" في دراسته للطفل "السارق"، على أن ظاهرة السرقة، ترتبط بالتغيرات النفسية والفيزيولوجية التي تطرأ على الحدث، وبتوتر علاقاته بالوسط الذي يعيش فيه، لاسيما بأفراد أسرته [12]؛ ويبلغ سلوك السرقة درجته القصوى من الخطورة لدى الحدث، عندما يتم بكيفية جماعية، مما يخفف من شعوره بالإدانة ويقوي ميله لتحدي المجتمع والانزلاق في عالم الجنوح والانحراف [13].

الدراسة الميدانية

لقد اعتمد الباحث في تناوله لهذه الدراسة على أسلوب المقابلة المباشرة كتقنية، وكأداة لجمع المعطيات، وذلك لكون جل النزلاء المودعين بالمركز الإصلاحي، يغلب عليهم طابع الأمية.

إن تواجد الباحث داخل المركز، مكنه من تحقيق الأهداف التمهيدية التالية:

1- التعرف عن قرب حول مجال الدراسة الميدانية.

2- إتاحة الفرصة للأحداث الجانحين للاستئناس بالباحث.

3 – رسم الخطوات الأولى للشروع في البحث الميداني.

وانطلاقا من الملاحظات المباشرة، والمقابلات المتكررة، في فترات زمنية متباينة، تم نسج حوارات مفتوحة مع الأحداث الجانحين، وأيضا مع المربين، والمشرفين التربويين، توجه اختيار الباحث على حالتين من هؤلاء الأحداث، ليشكلا عينة البحث الحالي.

ويمكن رسم نموذجا أوليا يتضمن الجوانب التالية:

الشكل 1

يمثل المهارات الخاصة بالحدث الجانح

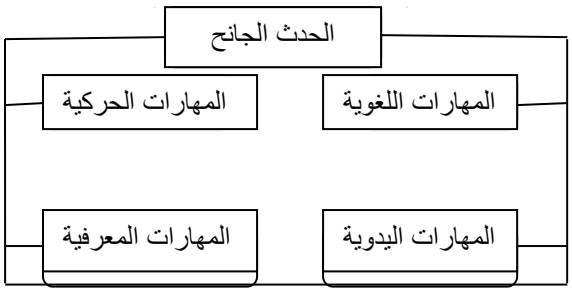

1- المهارات الحركية واليدوية: من خلال الملاحظة، تبين للباحث، أن أغلب الأحداث المودعين بالمؤسسة الإصلاحية، يبدون رغبة كبيرة في ممارسة النشاط الرياضي، ولعل ذلك مرده إلى مدى الرغبة الجامحة لديهم لتفريغ طاقاتهم الداخلية، من أجل التنفيس عما يشعرون به من نقص، وحرمان عاطفي. كما لاحظ الباحث، أن القاسم المشترك بين أفراد المجموعة، هو وحدة الرغبة في ممارسة هذا النشاط الرياضي، وخاصة لعبة كرة القدم. وكون أغلب أفراد المجموعة ينتمون إلى طبقات فقيرة، ويعانون بالإضافة إلى الحرمان المادي حرمانا ثقافيا، المتمثل في انتشار الأمية أو تدني المستوى التعليمي، مما يجعلهم يميلون إلى التعبير الحركي عن انفعالاتهم ومشاعرهم، وهم بالتالي يجدون في المهارات الحركية المجال الطبيعي لممارسة هذا التعبير، وفي هذا الصدد يشير د. محمد عباس نور الدين، "إلى أن سلوك أطفال الفئات المحرومة ماديا وثقافيا يغلب عليه الطابع الحركي باعتباره الأسلوب الذي يتناسب مع شخصيتهم وظروفهم الاجتماعية" [14]. كما تأكد أيضا من خلال الملاحظات المتكررة، أن الأحداث الجانحين، يحدوهم، وبشكل يومي، الحماس نحو إنجاز الأعمال اليدوية التقليدية، وإن كان هذا الإنجاز يتخذ أحيانا طابعا تقليديا، وفي هذا الخصوص، يدرج الباحث الأمثلة التالية: مسح الطاولات، وكنس قاعة الأكل

بعد انتهاء وجبات الأكل الرغبة في إتقان بعض أعمال البستنة، دون إظهار أية علامة على التعب أو الملل، التي لا تبدو إلا على البعض منهم. إن نمو هذه المهارات الحركية يساعد الطفل على اكتشاف المحيط الخارجي، ويخرجه من أنانيته، أو تمركزه الذاتي حسب تعبير (بياجي)، واكتشافه لأشياء لم يكن يعرفها، لهذا فإن هذه المهارات الحركية تزداد وتظهر عن طريق أنشطة اللعب مع الآخرين، حيث يتعلم الطفل الالتزام بقواعد الجماعة، وقوانينها ويتعلم الانضباط للمجتمع واحترام معاييره [15].

2- المهارات اللغوية: تبين للباحث أن الأحداث غير منسجمين، من حيث إمكانياتهم اللغوية، حيث لاحظ أن بعضهم يستطيع التعبير عن مشاعره، بنوع من التلقائية، والانفراج، الذي يستشف منه الإحساس بالثقة، في حين أن البعض الآخر، والذي يشكل الأغلبية، تبدو عليه علامات القلق، والذي تم رصده من خلال فترات الصمت المتكررة، والتردد في الكلام، والتزام الصمت المطبق، مع ما يصاحب هذه الحالة من اضطرابات على مستوى التعبير، وصعوبة الكشف عن المشاعر. ولقد اتضح أيضا، عدم انسجام هؤلاء الأحداث، من حيث لهجتهم العامية، كونهم منحدرين من مناطق جغرافية متباينة، إذ قلة منهم تنحدر من مناطق بربرية، وأخرى بدوية، تتوزع بين شمال وجنوب المملكة، إلى جانب المنحدرين منهم من المدن الحضرية.

3- المهارات التجريدية (المعرفية): اتضح من خلال الملاحظات المباشرة لفضاء أعمال الأحداث الجانحين، وجود مفارقة كبيرة، بين المهارات اليدوية، والمهارات المعرفية، لدى ميول هذه الفئة من الأحداث، إذ على عكس ما لوحظ بمناسبة الحديث عن المهارات اليدوية، اتضح نفور ورفض هؤلاء الأحداث لكل نشاط يكتسي صبغة تجريدية، أو صورية، أو فكرية، والتهافت على كل الأنشطة ذات الطابع المحسوس، والملموس، والعملي؛ وقد تم إغناء هذا الاستنتاج بتصريحات المعلمة، المكلفة بإعطاء دروس التعليم ومحو الأمية، والتي أكدت نفور هؤلاء الأحداث من حصص التعليم، والذين لا يبدو عليهم أي حماس اتجاه هذا النوع من البرامج، إضافة إلى علامات العياء، والملل، التي تظهر عليهم داخل الفصل. وهذا الأمر لا يوحي بالغرابة، إذا ما تم استحضار نمط "التنشئة الأسرية" لهؤلاء، من حيث علاقاتهم بالمهارات المعرفية، والإبداع، التي تظل ضعيفة جدا، إن لم تكن منعدمة؛ وخاصة إذا علمنا أن معظم نشاطاتهم خلال الطفولة، كانت محصورة لدى غالبيتهم على الأعمال اليدوية التقليدية مع أفراد أسرهم، وتسخيرهم لقضاء بعض المآرب المنزلية البسيطة، أو مزاولة الرعي لدى البعض الآخر منهم، المنحدرين من البادية.

مما يوضح أن هذه الفئة من الأحداث، لم تحتك مع ما يشير إلى التمثلات الصورية، أو الإدراكات التجريدية، وهذا التصور يحيل الباحث إلى "السيكولوجية المعرفية"، التي تناولت ضمن موضوعاتها، مفهوم "التمثلات"، التي اعتبرتها حصيلة معرفية للنشاط الإنساني، في علاقته مع موضوعات العالم، والأحداث، والأفعال التي يقوم بها [16].

والتمثل، هو شيء يقوم مقام شيء آخر، فحينما يكون الموضوع غائبا عن المجال البصري للطفل، فإنه يقوم بعمليات ذهنية، يعمل من خلالها على استحضار الخاصيات، التي تميز ذلك الموضوع، ويمكن استخلاص، أن للتمثلات قدرة على تحويل الموضوعات، والأحداث، إلى رموز ذهنية، أو مفاهيم، أو خطاطات، والاحتفاظ بها، تم توظيفها عند الحاجة [17].

انطلاقا من هذه المعطيات الميدانية، ووعيا بالخصوصية التي تميز هذه الفئة من الأحداث، اتضح جليا للباحث، أن التقنية، والأداة المناسبة لسبر أغوار موضوع البحث الحالي، الموسوم ب" التفكك الأسري وعلاقته بتكوين مفهوم الذات لدى الحدث الجانح مقترف جنحة السرقة"، والإلمام بكل جوانبه، هي دراسة الحالة، مع اعتماد الملاحظة، والمقابلة بالمشاركة، التي تقوم على جمع المعلومات، والبيانات التفصيلية، عن الحالة المدروسة، وتطورها منذ الطفولة، وعلاقتها بالأسرة، وبالوالدين، وغيرهم من الأشخاص المهمين بالنسبة للمفحوصين، ويشمل ذلك النواحي: الصحية، والتعليمية، والاجتماعية؛ أما الو سائل المساعدة لإغناء نتائج هذه الدراسة، فتتجلى في دراسة وفحص

ملفات الأحداث التي وضعت رهن إشارة الباحث، وتتألف من الملف القضائي، والإداري للمفحوصين، وملف السلوك الذي يضم الملاحظات المسجلة من طرف المربي المكلف بمراقبة الحدث وتتبعه طوال مده إقامته بالمركز، وأيضا ملف سلوكه اليومي، والملف الاجتماعي، الذي يحتوي على كل المعلومات، المتعلقة بأسرة الحدث، من جوانب المستوى الاقتصادي، ونوع السكن، ووضعية الأبوين (ارتباط، أو طلاق، أو انفصال)، مهنتهما، مستواهما التعليمي، وعدد الإخوة، والحالة الصحية والانفعالية للحدث، ومستواه التعليمي، ورغباته وميوله. وتأسيسا على كل المعطيات والبيانات المحصل عليها، رسم الباحث تصميما لدراسة الحالة للمفحوصين، معتمدا على الأبعاد التالية:

الشكل 2

الأبعاد المعتمدة لدراسة الحالة

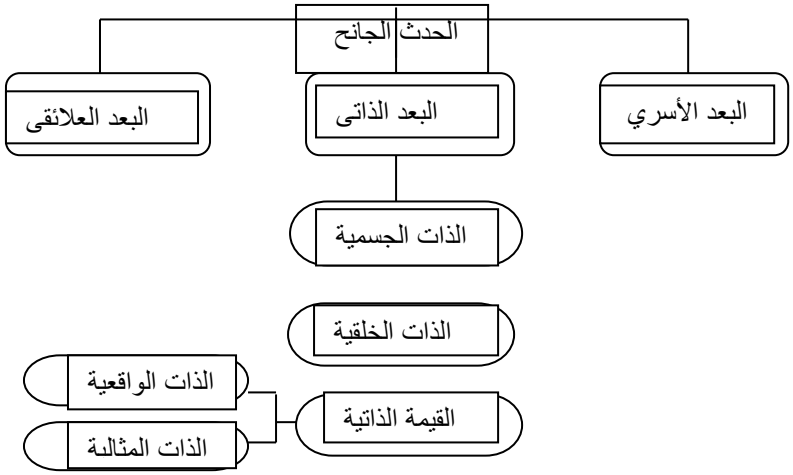

أولا: البعد الأسري: ويتضمن أسئلة تختبر اتجاهات الحدث نحو أفراد أسرته عموما، ووالديه خصوصا، ويركز الباحث اهتماماته هنا على الأحكام القيمية والأدوار الاجتماعية، التي تخصصها الأسرة للحدث، مع مراقبة مدى قبول، أو رفض الحدث لهذه التصنيفات المعيارية، والتي لها علاقة بمفهوم الذات لديه.

ثانيا: البعد الذاتي: ويشمل مفهوم الذات الجسمية، ومفهوم الذات الخلقية، ومفهوم القيمة الذاتية.

أ– مفهوم الذات الجسمية: وهو مفهوم الحدث عن جسمه، ومدى تقبله له، وسلوكه اتجاهه؛ وسيستثمر الباحث هذا البعد، للحصول على كل المعلومات التي تتعلق بالماضي الصحي للحدث، مع ملاحظة ردود فعله الانفعالية، وما يظهر عليه من تغيرات فيزيولوجية، أو خلل حسي، أثناء إجراء المقابلات معه، ومدى تأثير الأمراض، في حالة تعرضه لها، على تصوره لجسمه، وعلاقة ذلك بتوافقه الشخصي والاجتماعي.

ب– مفهوم الذات الخلقية: وهو المفهوم الذي يكونه الحدث عن خلقه، ومدى تقبله لأخلاقه، وسلوكه.

ج– مفهوم القيمة الذاتية: وهو مدى إدراك الحدث لذاته، وتقبله لنفسه، وسلوكه الشخصي، وهذا المستوى ينقسم إلى مكونين اثنين:

1– مفهوم الذات الواقعية: وهو موقف الحدث من ذاته كما هي في الواقع، وتقييمه لها من النواحي التالية، مهاراته، إمكانية الشعور بالثقة، الإحساس بالأمن، الشعور بالعجز، أو الخوف من الفشل.

2– مفهوم الذات المثالية: ويعني الصفات التي يطمح الحدث لأن تتوافر فيه، والاتجاهات، وأنواع الطموح التي يحتفظ بها على سبيل الإمكان، والتي تمثل الرغبات المكبوتة.

ثالثا: البعد العلائقي: ويتجه هذا البعد، نحو الآخرين، الذين احتك بهم الحدث في الماضي، أو خلال رحلته، منذ لحظة ارتكاب الفعل الإجرامي، إلى حين لحظة تواجده بالمركز. ويشمل هذا المسار، الجيران، ورفقاء الطفولة للحدث، ورفقائه داخل المؤسسة الإصلاحية، والمشرفين التربويين المكلفين بإعادة التربية والتأهيل المهني داخل هذه المؤسسة.

الحالة الأولى (16 سنة)

الحدث من مواليد 1998، بضواحي القنيطرة، التحق بمركز حماية الطفولة منذ أواخر شهر دجنبر من سنة 2012، بعدما أصدرت محكمة الأحداث بالرباط، تدبيرا وقائيا في حقه، يقضي بإيداعه بالمركز، إلى حين بلوغه سن الرشد الجنائي، حيث إن الفعل الجانح المنسوب إليه، يتجلى في ارتكابه لسرقات متعددة. ينحدر الحدث من وسط حضري، وينتمي إلى أسرة فقيرة، تتكون من 6 أفراد، الأب والأم، وأربعة إخوة، يأتي الحدث في المرتبة الثالثة، قبل الابن البكر.

أ- البعد الأسري:

والد الحدث يبلغ من العمر 40 عاما، حالته الصحية لا بأس بها، لا يشكو من أي مرض، وغير مصاب بأية عاهة، كان يشتغل في البداية كسائق مؤقت بشركة خصوصية، لكن هذا الارتباط بهذا النوع من المهن، لم يكن ليكفي سد حاجيات عدد أفراد الأسرة، لهذا اضطر للبحث عن عمل مستقر، ومستمر، وهو ما حصل فعلا، حيث يزاول كحارس بمؤسسة عمومية. هكذا أصبح الأب مضطرا لقضاء الأسبوع بالكامل بمقر عمله الجديد، بحيث لا يمكنه زيارة الأسرة إلا في أيام عطلة آخر الأسبوع، حسب ظروف العمل، أو بمناسبات إجازات العمل إن هذا الغياب المستمر للأب من البيت، كان يسبب متاعب كبيرة لأم الحدث، التي أصبحت تعيش وضعية اجتماعية غير مستقرة، وغير مألوفة، بسبب غياب الأب، ما كان له انعكاس مباشر على نفسيتها التي بدأ القلق، والانهيار يتسرب إليها. والمحور الرئيس في معاناة هذه الأم، يتحدد في عدم قدرتها على مراقبة أبنائها، ومتابعة شؤونهم من جهة والتفرغ في الوقت نفسه لتدبير شؤون المنزل من جهة ثانية.

إن المعطيات التي توصل إليها الباحث، من خلال الجلسات التي كان يعقدها مع أم الحدث، داخل المؤسسة الإصلاحية، بمناسبة زياراتها المتكررة لابنها، مكنته من الحصول على بعض التفاصيل المتعلقة بحياتها الخاصة مع زوجها، وبالتالي طبيعة العلاقة مع أبنائها.

لقد ساهم التفاعل الإيجابي بين الباحث والحدث في كسب ثقة الأم، بشكل تلقائي، بعدما سجل معه عدة مقابلات، أثناء زياراتها بدون حضورها طبعا، لكنها كانت تترقب عن بعد، حركات الابن، وهو يتبادل أطراف الحوار مع الباحث، في جو يشمله الهدوء والتفاهم، قبل أن يلتحق بها للاستفادة من الزيارة.

أثناء الحديث مع الأم، كانت هذه الأخيرة تحاول تأكيد عدم إدانة ابنها، وتبرئته من التهمة المنسوبة إليه، إلا أن الباحث تمكن من إقناعها، بأن التهمة في حد ذاتها ليست لها أهمية، بقدر ما يهمه التعرف على الحالة الأسرية، وذلك بهدف مساعدة الحدث على إصلاحه، واستعادة توازنه النفسي، وبالتالي تيسير عملية اندماجه الأسري والاجتماعي. إن تمسك الأم الدفاعي بعدم الإصرار بالسلوك الجانح لابنها، له علاقة وطيدة بمدى مصداقية وظيفتها كأم مشرفة على أبنائها، ومدى حرصها على سمعتها الاجتماعية، والتربوية، والمتمثل في تفادي الاعتراف بفشلها في إنجاز المهمة التربوية، والمراقبة الاجتماعية لسلوك أبنائها، إضافة إلى الخوف من نظرة الآخرين، وخاصة الأقارب، والجيران لها، الذين قد يلقون عليها اللوم، واللوم في هذه الحالة ينبغي له أن ينصب على موضوع آخر غيرها هي.

وغالبا ما يعزي الآباء أسباب انحراف أبنائهم إلى مصاحبة ما ينعتونه ب "رفقاء السوء" أو "الصحبة السيئة"، وهذا النوع من التبرير يعفيهم من مشاعر الذنب، والإحباط. وفي نفس السياق، ولتفادي مشاعر الإحساس بالقصور في ناحية الواجب التربوي، بادرت الأم أثناء الحديث معها بالقول، أن السبب الحقيقي الذي يكمن وراء معاناتها الحالية، والذي جعل منها الضحية الأولى قبل ابنها "الحدث"، هو ابتعاد الأب عن البيت، إضافة إلى المشاكل التي يحدثها لها الابن البكر، الذي يكبر "الحدث" بسنتين، والذي وقع في الإدمان على التدخين، وتناول المخدرات. لقد تبين للباحث، أن الأم تعيش بنفسها في مأزق نفسي – اجتماعي، إذ أن إمكانياتها المادية، والمعنوية، لا توفر لها أدنى إمكانية للتحكم في المشاكل المتراكمة من جراء الظروف المعيشية المذكورة أعلاه.

إن عمرها لا يتجاوز الثلاثين سنة، ورغم ذلك تبدو على ملامحها علامات الشيخوخة المبكرة، حيث تجاعيد تؤثث وجهها الشاحب، وكلامها ينقطع بين الفينة والأخرى، تتخلله تنهيدات تحسرية، تنم عن معاناة ظاهرة، وشعور بألم داخلي.

تعرج الأم في الكلام، لتتخذ موقفا دفاعيا، لكن هذه المرة لصالح الأب، وتؤكد أن السبب الرئيس لغياب هذا الأخير، وتواجده بعيدا عن البيت هو ضنك العيش ، وتمزج في نفس الوقت هذا التبرير، بالتعبير عن الصعوبات الكثيرة التي تجدها في تلبية حاجيات أبنائها، مما يسبب لها أرقا وتعبا شديدين، وبالتالي عدم القدرة على السيطرة على أبنائها، واحتوائهم. لكن الأمر الذي يزيد من هذه الحالة الاجتماعية صعوبة، والذي له علاقة بسيرة "الحدث الحالية، هو أنه كان، ولعدة مرات، ضحية لعدوانية أخيه البكر، المدمن على تناول المخدرات، وذلك بدافع أن هذا الأخير يريد تأكيد سلطته داخل البيت، باعتباره ممثل السلطة الأبوية داخل البيت، مع ما تمليه عليه هذه المسؤولية من تصرفات خاصة، لا يتقن منها سوى لغة السب، والشتم، والضرب، وتعنيف الإخوة الصغار، مما كان يخلق مناخا من التو ثر والخوف.

لقد كانت الأم عند شعورها بعدم القدرة على مواجهة هذه الصعاب، تلجأ إلى جارة، صديقة لها، هروبا من هذا الوضع، الذي لا تطيقه، مما كان ينجم عنه فراغ مطلق للأبناء، يدفع بهم إلى البحث عن الاستقرار، والأمن خارج البيت، حيث كان بعضهم يذهب لقضاء الوقت مع أسر أصدقائهم، أما الحدث، فكان يمضي معظم وقته، مستغلا هذا الوضع الأسري في مصاحبة بعض الأحداث المعروفين في الحي الذي يقطنه بسلوكهم المنحرف، والذين سبق لهم أن ضبطوا عدة مرات، في سرقات، وأعمال عنف ضد أحداث آخرين، ولكن نظرا لصغر سنهم، كان رجال الشرطة يسلمونهم إلى ذويهم، بإذن من السلطة القضائية، بعد الاستماع إليهم بحضور أولياء أمورهم.

عن السؤال، كيف كان موقفها عند علمها بمرافقة "الحدث" للأحداث المنحرفين، أفادت الأم، أنه ما دام لم يسبب لها مشاكل، كانت تفضل تركه لحاله، لأنها وحسب تعبيرها، كانت تثق فيه، ولا تشك في أخلاقه، حيث لم تفكر أبدا أن ابنها "الحدث" قد بدأ يشق طريقه في عالم الانحراف.

وحسب ما استنتجه الباحث من إفادات الأم، أن "الحدث"، كان يزودها بين الفينة والأخرى، ببعض النقود، حيث كان يقنعها بأن تلك النقود، مصدرها بعض الأعمال البسيطة، التي كان يقوم بها، كمساعدة بعض النساء في حمل "قفة الخضر" من السوق إلى منازلهن، أو غسل، وتنظيف بعض السيارات الخفيفة المتوقفة بمرآب الحي.

إن الثقة الزائدة، التي كانت توليها الأم اتجاه "الحدث"، جعلتها لا تولي أي عناء لنفسها، للتساؤل عن المصدر الحقيقي الذي يجني منه "الحدث" هذا المال، وذلك راجع إلى حاجاتها الماسة لتلك المساعدة المادية، وللمأساة التي خلفها لها الابن البكر العاطل عن العمل داخل البيت. في خضم هذه المعاناة الأسرية، كان "الأب" لا يحضر إلا نادرا، وفي صفة زائر موسمي فحسب، حيث كان لا يعير أي اهتمام لما يقع من أحداث، كانت تهدد الأسرة بالانحلال. وكان موقفه "الأب"، يطبعه التملص من المسؤولية، وهو ما كان يعبر عنه حسب تصريحات الأم والحدث على حد سواء، كلما حل بالبيت، بالعبارات التالية: (أنا جيت باش نرتاح ماشي باش نسمع الشكاوي، والمشاكل، بارك علي غير تمارة اللي تتضرب في الخدمة.): "إني قدمت إلى البيت كي أرتاح، وليس لسماع الشكاوي والهموم، يكفي التعب الذي أعاني منه من جراء العمل".

وهنا، كانت الأم، ونزولاً عند رغبة الأب، تتدخل بطريقتها لاحتواء أزمة البيت، وسعيا لعدم إزعاج الأب، وفي نفس الوقت لاتقاء شره، وحسب تصريحاتها، استمر الأمر على هذا الحال، إلى حين إلقاء القبض على الحدث من طرف شرطة الأحداث، وحوكم من طرف قاضي الأحداث، الذي اتخذ في حقه تدبير إيداعه بالمؤسسة الإصلاحية، إلى حين بلوغه سن الرشد الجنائي، وذلك من أجل ما نسب إليه من أفعال السرقات،

والمشاركة فيها. ساعتها انفجر غضب الأب، الذي لم يجد تفسيرا إلا تحميل مسؤولية كل ما وقع داخل البيت على الأم، متهما إياها حسب قولها، بالتقصير في واجبها كأم، وعدم الجدية في إخباره بما كان يجري داخل البيت من مشاكل.

لقد كانت الأم، ولحد إجراء هذه المقابلة معها، تتحمل تبعات هذه المأساة الأسرية، وما يفسر ذلك، هو أن "الحدث" لا يحظى إلا بزيارتها، أما أبوه، فلم يزره قط منذ لحظة إيداعه بالمؤسسة الإصلاحية، حيث انسحب تماما من البيت، معبرا بذلك عن سخطه على الجميع، تاركا الأم لوحدها تجر ويلات الوضعية المزرية، للأسرة ككل.

ب- البعد الذاتي:

فانطلاقا من المعطيات السالفة الذكر، يمكن القول بأن "الحدث" المفحوص، هو نتاج هذا الوضع الأسري المتأزم، والمتميز أساسا، بالانسحاب المطلق للأب عن مجال البيت، وعجز الأم في نفس الوقت، عن القيام بدورها، وتجسيد سلطتها، وفي المقابل حلول الابن البكر ليلعب الدور الرئيس، في تخطي حدود سلطة الأم على السيطرة داخل البيت، وتكسير هيمنتها الرمزية بعد انسحاب الأب.

لقد فسح استعمال القوة والسلطة الرمزية للابن البكر، المجال لهذا الأخير، ليصبح موضوعا للتماهي من طرف الإخوة الصغار، وهو ما يماثل النموذج الذي يضعه مصطفى حجازي، لرسم علاقة" السائد بالمسود"، والتي تقوم على تماهي الضعيف بالمتسلط، أي يتحول القوي إلى النموذج الاجتماعي المرغوب فيه" [18].

إن السلطة، لا تقترن في هذا السياق بالبعد المادي، أي ممارسة العنف على الآخرين، بقدر ما تحيل إلى الجرأة على اختراق المكانة الرمزية، الخاصة بكل فرد داخل الأسرة المغربية، وعلى الخصوص تلك التي يحتلها الذكور، ثم مكانة الوالدين كمجال للتقديس، والاحترام. وننطلق لتعزيز هذا الطرح، من الواقع المعيش، حيث مازال معظم الأسر المغربية، إن لم نقل جلها، تحترم مكانة الأب.

فإذا كان الابن البكر، قد جسد ذلك التمرد على القواعد الأسرية، عن طريق الاستعانة بأسلوب عنيف، ومباشر، محتجا في ذلك على تفكك الوسط الأسري بعد غياب الأب، وتراكم المشاكل، وصعوبة العيش، فإن الحدث الجانح "المفحوص" من جهته، يكون قد جسد هذا الخرق لسلطة القيم الأسرية، وذلك بواسطة التحايل والتلاعب بوجدان الأم، والتظاهر بسلوك حسن، غير أنه على خلاف ذلك، قد شق مشواره في طريق الانحراف، كوسيلة للتعبير وللاحتجاج على وضعه الأسري المتأزم من جهة، وكأسلوب لكسب العيش، وتحقيق الاستقلال عن حياة البيت، وصخبها من جهة أخرى.

أثناء إجراء المقابلة في أول لقاء مع الحدث، كان يبدو مبتسما في حالة مريحة، متحفظا إلى حد ما، في كلامه، حريصا على تلميع صورته الذاتية، وتقديمها في الشكل الذي يناسب معايير الشخصية المؤسساتية. ولقد تجلت هذه المشاعر المفتعلة، في عباراته التي تحمل في طياتها، نزعة مثالية، وطفولية، تريد الانسجام مع متطلبات المؤسسة، ويظهر ذلك من خلال تعبيره التالي: "بغيت نخرج من هاذ المركز، باش نقلب على خدمة، وندير أسرة بحالي بحال الناس": "أردت الخروج من هذا المركز، من أجل البحث عن عمل، وتكوين أسرة كبقية الناس".

إن هذا الاتجاه الاجتماعي في شخصية الحدث، هو الذي عبر عنه جل الأحداث النزلاء للباحث داخل المؤسسة.

إن هذا الوجه الاجتماعي الإيجابي، الذي يريد الحدث "المفحوص" تبريره ليرضي الباحث، كان يخفي وراءه خطابا تربويا شكليا، ذا مصدر أخلاقي محض، ترتكز عليه برامج مراكز حماية الطفولة، فبدل العمل على إعادة بناء للدينامية النفسية، والمساهمة في إعادة تشكيل التنشئة الأسرية، والاجتماعية للحدث، من خلال وسائل ملموسة، فإنها تكتفي بالارتكاز فقط على تقويم السلوك الجانح بالردع الأخلاقي.

إن ما يبرر هذا الرأي، هو أنه بالرجوع إلى حياة "الحدث" وطفولته الأولى، اكتشف الباحث، أن وراء انحرافه، تكمن سوابق

كانت بمثابة بوادر، وناقوس الإنذار، إذ سبق للحدث المبحوث، أن قام باقتراف عدة سرقات بسيطة من داخل البيت، ورغم عدم أهميتها، وخطورتها، فإنها تحمل في طياتها تأويلا نفسيا، لم يميط اللثام عن شخصية محرومة عاطفيا، في حاجة ماسة إلى مشاعر الحب والدفء الأسري، وهو ما لم تستطع الأسرة توفيره للحدث، مما حتم عليه الانخراط في عالم الجنوح، لتحقيق هذا الإشباع الوجداني، وتغيير اتجاهه نحو ذاته، أي بالاعتراف، والانسجام مع الذات، داخل فضاء اجتماعي آخر، ترممه الجماعة الجانحة، إن انسحاب الحدث من البيت، كانت تحتمه الرغبة في التخلص من وضعية التهميش العاطفي، والاضطراب، وعدم الشعور بالسكينة، بحيث أن كل طاقة انفعالية للأم، كانت مركزة حول الابن البكر، وهو ما عبر عنه الحدث، ولو بشكل خجول في قوله التالي: "امي كانت تتبغي بزاف خويا لكبير، لي كان عزيز عليها، وخا كان تيسبب ليها ولينا بزاف ديال المشاكل": "رغم كل شيء، أمي كانت تحب كثيرا أخي البكر، بالرغم من كل ما كان يسببه لها، ولنا من مشاكل"، ويستمر الحدث في التعبير التالي: " وليت كنحس أن خويا لكبير هو الوحيد لي تتبغيه مي، أما آنا وخوتي لخرين، كاتبغينا قل منو":" بدأت أشعر أن أخي الكبير هو الوحيد الذي تحبه أمي، أما أنا وبقية إخوتي، فكنا دائما لا نحظى إلا بالجزء الضئيل من حبها".

إن هذا الموقف الذي كونه الحدث عن الأم، والذي يتجلى في تمييزها في الاهتمام بالأبناء، يشكل عاملا نفسيا، ساهم بقسط كبير في زعزعة الاستقرار النفسي، وتكوين صورة سلبية عن مفهوم الذات لدى الحدث الجانح.

فالسلوك الجانح، الذي أقدم عليه الحدث، قد كشف الستار عن مأزق أسرته، بحيث انفجرت كل المكبوتات التي كانت تألف علاقة أب الحدث بأمه، مما نجم عنه انسحاب الأب، هذا الأخير الذي فضل الغياب عن المواجهة.

لقد كشف الحدث، أنه كان يفضل دائما البقاء خارج البيت، الذي لا تربطه به سوى ضرورة زيارة الأم، وتفقد أحوالها، وهو ما يعني في الأخير، الفرار من الذات الواقعية، المشوبة بالإحباط، وعدم الشعور بالاطمئنان، نحو البحث عن صورة أخرى للذات، داخل الجماعة الجانحة، التي تدفع بالحدث صوب الفعل الجانح كسلوك بديل، لإثبات الذات، والشعور بالرضى، والأهمية، وهو ما لامسه الباحث من تعبير الحدث التلقائي أثناء المقابلة: "مع صحابي كنشعر ديما بأني راجل بحال الرجال، قاد ندبر على راسي، بعرق كتافي": "مع أصدقائي أشعر دائما بأني رجل كباقي الرجال، قادر على كسب قوت يومي، من عرق جبيني". وموقف الحدث هذا من أصدقائه، فسح المجال للباحث، المرور لتناول البعد العلائقي، الذي تتشكل منه صورة الذات للحدث عن نفسه ".

ج– البعد العلائقي:

انطلاقا من موقف أصدقاء الحدث منه، أي الصورة التي يكونها عن نفسه، من خلال تفاعله بهم، وهي صورة غير مطابقة مع واقعها، لأنها تندفع نحو تقمص نموذجها المثالي، وهذا الأمر، يستنتج من عبارته التالية: "صحابي كلهم تيصليو، وتيدبرو على رزقهم بشكل مشروع.": "إن أصدقائي يقومون بواجبهم الديني (الصلاة)، ويكسبون رزقهم بطريقة مشروعة".

إن هذا التصور، يحيلنا على ما ذهب إليه "بيرت رايموند ريفير"، "إن تقمص الحدث لشخصية شخص مماثل له، يعرف نفس المشاكل والهموم، ونفس القلق، ونفس الحماسة، يتقاسم معه نفس المعاناة العاطفية، أمر يكون له دور أساسي، في تطور أزمة مرحلة الحداثة" [19].

من هنا تظهر لنا المسافة الفاصلة، بين صورة الذات الواقعية عند الحدث الجانح، والصورة المثالية لها، أي النزوح نحو ذات مثالية، بحركة دوافع الشعور بالذنب والخطيئة.

في سياق تحليل هذا البعد العلائقي للحدث، يتبين أن هذا "المفحوص"، يضفي على أصدقائه سمات إيجابية غير موجودة فيهم أصلا، وذلك بغية تحويلهم إلى نموذج اجتماعي، مشبع بالسمات الأخلاقية الحسنة، إذ لا يتم هذا التحويل، إلا عبر مخايله الطفولية، التي تهيمن عليها مشاعر الذنب.

كما اتضح من خلال المعطيات المحصل عليها من الملف الاجتماعي للحدث، والمقابلات التي أجريت مع الأم، أن الأسرة لا تواضب على أداء الصلاة.

كما أن الأب، وقبل مغادرته البيت للعمل بعيدا بمدينة أخرى، كان يشرب السيجارة على مرأى من أبنائه داخل البيت، والحدث كان لا يتجاوز السادسة من عمره، وكلما حاولت هذه الأخيرة التدخل لتنبيهه لسلوكه هذا، كان لا يتوانى بقذفها بوابل من السب والشتم، أمام مرأى، ومسمع الأبناء، مما كان يدفع بهؤلاء إلى الانزواء في ركن من البيت الضيق المتكون من غرفتين، ومطبخ، ومرحاض، منتظرين ما ستؤول إليه الأمور، والتي كانت غالبا ما تنتهي بانهزام الأم.

صارت أحوال البيت على هذا المنوال، ولم تتنفس الأم الصعداء، بحسب تعبيرها، إلا لحظة مغادرة الأب البيت خارج المدينة. لكن ما لبثت الوضعية الأسرية، أن عادت لتتعقد من جديد، وذلك بوقوع الابن البكر في تكرار سلوك الأب، وتجسيد صورته، بل وتكريسها داخل البيت، بالتعاطي لشرب السيجارة، وأحيانا تناول الكحول.

إن الوضعية الأسرية المضطربة، والمفككة، التي عاشها الحدث المبحوث، جعلته يستبطن تجربة اجتماعية سلبية، جعلته ينظر إلى كل استقرار، على أنه مجرد زيف، وواجهة خارجية، سرعان ما تتهاوى أو تزول، ويستشف هذا التصور من خلال تعبيره التالي: "الناس كلهم خداعين، لأنهم كايكذبو ومتايبينوش غير الحوايج المزيانة، ماشي كيف كاين في الواقع، فكل المتزوجين كايعيشو في المشاكل، الدراري صحابي اللي تنعرفهم، تايعاودو ليا مشاكلهم مع ديورهم، بحال المشاكل للي كانعيشها أنا مع دارنا": "كل الناس مخاذعون، لأنهم يكذبون، ولا يتحدثون إلا عن ما هو أحسن، وأفضل، في حين أن الواقع شيء آخر، فكل المتزوجين يعيشون مشاكل، والأطفال الذين أعرفهم، يحكون لي أمورا تتشابه مع ما أعيشه داخل أسرتي".

وانطلاقا من هذا التصور الذي ينسجه الحدث اتجاه الآخرين، يمكن استنتاج، كيف يتحول العالم الخارجي إلى صورة مطابقة للعالم الداخلي عنده.

إن الحكم الذي يضفيه هذا الأخير على الآخرين، الموسوم بالكذب، والنفاق، هو في واقع الأمر، تجسيد لرغبته في تدمير كل استقرار اجتماعي، وبالتالي الاندفاع نحو إسقاط صورته الذاتية على كل من يحيط به بالعالم الخارجي.

إن الحدث تسيطر عليه مخاوف العودة إلى البيت، وهذا ما كشف عنه حينما توطدت العلاقة الإنسانية، بينه وبين الباحث، حيث لم يتوان بالبوح في رغبته الشديدة، في البقاء بالمؤسسة، بعيدا عن مشاكل أسرته، التي كلما تذكرها، إلا غامرته مشاعر الارتباك، مع ظهور اضطرابات أخرى، كصعوبة في النوم، وفقدان شهية الأكل. وبالفعل تظهر على الحدث بعض هذه الأعراض، في بعض الأحيان، بحسب ما تم التوصل إليه من المشرف التربوي المكلف بالحدث داخل المركز.

وبالعودة إلى علاقة الحدث بأبيه، فتعتبر بمثابة النقطة السوداء في ذاكرته النفسية، حيث لاحظ الباحث أنه، وعلى امتداد المقابلات التي أجراها معه، لم يتحدث إلا نادرا عنه، وعندما يتحقق ذلك، يكون تحت ضغط أسئلة الباحث المتعمدة، إذ يستعمل كل مكانيزمات الدفاع على إلغاء حضوره، ولو صوريا، وبالتالي تكثيف الاهتمام على الأخ الأكبر، الذي يمثل صورة الأب بشكل أكثر تشوها، وانحرافا، هو ما ينتج للحدث علاقة جديدة بالآخر، تحل فيها رابطة الأخوة، محل رابطة الأبوة، مع ما يكتنف هذا التبديل من تغيير جدري في المشاعر، وصورة الذات التي تزداد اهتزازا، وميلا نحو المنافسة الغير المتكافئة مع الأخ الأكبر، بغية امتصاص الطاقة الوجدانية المتبقية في عطف الأم، بعد انسحاب الأب.

الحالة الثانية: (17 سنة)

الحدث من مواليد 1997، ينحدر من وسط حضري، بمدينة سلا، التحق بالمؤسسة الإصلاحية في بداية شهر يناير لسنة 2013 بعدما صدر في حقه تدبيرا قضائيا، ينص على إيداعه بالمركز إلى حين بلوغه سن الرشد الجنائي، هذه التوصية القضائية تنمي على حالة الحدث المزمنة، إذ سبق له وأن تم

إيداعه بالمركز، وأحيل على قسم الملاحظة، بمؤسسة حماية الطفولة، وبعدما استنفد هذه المدة، تم تسليمه إلى أسرته بموجب قرار قضائي، بعدما أرجعت إدارة المؤسسة تقريرا إلى قاضي الأحداث، تلتمس فيه منح هذا الأخير، فرصة جديدة، قصد العودة إلى وسطه الطبيعي.

اجتمعت في حالة هذا الحدث، الكثير من العوامل النفسية، والاجتماعية ، والتي ترشحه لأن يكون جانحا بالفعل، وسيعرض الباحث فيما يلي: بنوع من التوسع هذه العوامل تبعا للأبعاد السالفة الذكر.

أ– البعد الأسري:

إن والد الحدث، كان يشغل كمياوم، وقد رفض الحدث أن يدلي بالمدينة التي يتواجد بها حاليا، مبررا ذلك بأنه لا يعرف له أثرا. إذ منذ رحيله، لم يتصل بأسرته، لا بالرسائل البريدية ولا عبر الهاتف، لتظل الأم هي التي تتكفل بإعالة الأبناء، وذلك لاشتغالها كخادمة في البيوت.

أما حالة الأب، حسب تصريح الحدث، فكان مدمنا على التدخين، وذو طبع عنيف، إذ كان يعاينه وهو يضرب أمه، أو يقدم على كسر أواني المطبخ، كلما وقع خلاف بينهما.

عمر الأب قبل الغياب، هو 40 سنة، وكان لا يشكو من أي مرض، أو عيب عضوي، باستثناء إدمانه على التدخين، أم الحدث، تبلغ من العمر 34 سنة، وهي المسؤولة عن إعالة الأسرة المتكونة من 4 أبناء، بما فيهم الحدث الأكبر ضمن إخوته.

نزحت الأسرة من ضواحي مدينة القنيطرة، المتواجدة بالجهة الشمالية الغربية للمملكة، وذلك حينما دفعت ظروف البحث عن العمل الأب بالتوجه إلى مدينة سلا، لما تمتاز به هذه المدينة من شعبية، بحيث تكثر فيها فرص العمل التقليدية، كالبيع بالتجوال، أو مزاولة الأنشطة المتفرعة عن الفلاحة، كبيع الخضر، أو حمل، ونقل البضائع بأسواق الجملة للخضر، المتواجدة بهذه المدينة. وهكذا استقرت الأسرة بضواحي سوق الجملة للخضر بهذه المدينة.

الحي الذي استقرت به أسرة الحدث، حي شعبي، معظمه من البناء العشوائي، حيث تمكن الأب من شراء بيت يتكون من غرفتين ضيقتين، تؤثثهما أمتعة وأواني جد متواضعة، كما جاء في تصريحات الأم والحدث معا.

وبعد التوقف عن العمل بسوق الجملة، وضيق العيش، غادر الأب إلى مدينة بشمال المملكة، حيث كان ناذرا ما يرسل إلى الأم بعض النقود، مع بعض أصدقائه، كلما حلوا بالمدينة، لتنقطع بعد ذلك كل الأخبار عنه، ليترك الأم تتحمل لوحدها مسؤولية البيت والأبناء.

المستوى الثقافي للأسرة جد متدن، حيث لم يسبق لوالدي الحدث، أن ولجا الحياة المدرسية، ولا حتى المرور من التعليم الكتابي "المسيد".

كان عمل الأم يأخذ منها كل وقتها، إذ تضطرها ظروف العمل بالبيوت، على ترك أبنائها الصغار عند جارتها، وأحيانا تصطحب معها ابنها الصغير، البالغ من العمر 4 سنوات.

وفي ظل هذا الوضع المتفكك، تبلور السلوك الجانح لدى الحدث موضوع دراسة الحالة.

ب– البعد الذاتي:

لقد كشفت المقابلة الأولى، عن اندفاع الحدث، وبطاقة انفعالية قوية نحو محاورة الباحث، والإفصاح بشكل تلقائي وسريع، دون احتراس أو حيطة عن مشاعره، وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة، لكي يدلي فيها للباحث بكل ما يجيش في خاطره، حتى يتخلص على ما يبدو، من عبء الآلام والتوترات التي تخيم على نفسيته.

لقد اندهش الباحث في البداية من سلوك الحدث هذا، الذي يأخذ طابع التداعي الحر للأفكار، والمشاعر دون احتياط، أو لف، أو دوران، أو حتى مقاومة طبيعية لبعض الأسئلة، التي تخاطب المناحي الحميمية من شخصية الحدث. في هذا السياق تبلورت لدى الباحث مجموعة من الاحتمالات، نذكر منها:

خلال اندماج الحدث الحميمي هذا نحو الباحث مع التسرع في الإفصاح عن معاناته، تتأسس الفرضية التالية: هل يرغب

الحدث في أن يقوم بأداء دور الأب، وينتظر من مخاطبه أن يمنحه العطف، والحب، والاعتراف، مقابل أن يمنحه هو كل ما يطلبه منه، أي الاستجابة اللامشروطة لكل أسئلة المقابلة.

إن هذه الفرضية، يصبح مجال اختبارها رهينا بمسار التفاعلات، التي ستحدث في المقابلة اللاحقة أو الموالية.

إن سلوك الحدث هذا، يخفي رغبة مناقضة لاستعداده الطفولي، الموسوم بالارتماء السريع في المجال العاطفي للباحث، بمعنى قد يفهم هذا الأخير أن المستجوب يريد قول كل شيء في زمن مختصر جدا، وكأنه يوحي إلى الباحث بأن تكون هذه المقابلة هي الأولى، والأخيرة، وهذا ما لم يرغب فيه الباحث.

على كل حال، كان مناخ المقابلة متسما بروح الانفتاح لدى الحدث، والتفاعل المطلوب في كل مقابلة من هذا النوع.

إلا أن الباحث كان حريصا جدا على عدم الانسياق مع هذه المواجهة، التي قد تخفي وراءها عدة مفاجآت، قد تكشف ميكانيزمات أخرى، أكثر عمقا في شخصية الحدث.

لقد ركز هذا الأخير حديثه في اللقاء الأول معه، حول وضعيته داخل المؤسسة، إذ كان يعبر وبشكل صريح عن رغبته الملحة في مغادرة المركز.

إن هذه الرغبة في الخروج من المؤسسة، قد ترجمتها حالات الفرار التي سجلتها تقارير المربي بالمركز. حيث أن الحدث سبق له وأن فر ثلاث مرات، وكانت أمه تتكفل بمسؤولية إعادته إلى المركز. ولعل تقرب الحدث من الباحث، وبهذا الشكل الحميمي، قد يفسر من خلال اعتقاده، بأن الباحث قادر على مساعدته، في تحقيق رغبته هذه، لكن بعدما تأكد له بأن الأمر لن يتحقق، وخاصة لما أكد له الباحث من جهة، أنه باحث مهتم بشؤون الأحداث، لا تربطه علاقة بالجهاز القضائي، ولا بإدارة المركز، ساعتها بدأ الفتور يتسرب إلى علاقة الباحث بالمفحوص، الذي بدا على سلوكه تغييرا، وظهرت عليه علامات التراجع والإحجام التي شرعت في احتلال مواقع السلوكات الأولى، التي اتسمت بالاندفاع نحو الباحث والالتحام به، ومحاورته بدون أدنى تردد.

لقد اضطر الباحث أمام موقف الحدث هذا، وخلال المقابلة الثانية، بأن يعيد طرح الأسئلة التي سبق أن تم طرحها عليه في المقابلة الأولى، وذلك بهدف المقارنة بين المعطيات من خلال حالتين نفسيتين مختلفتين. في هذا السياق عانى الباحث من الصعوبات التالية:

1- إحجام الحدث عن الإسراف في طاقته الكلامية، مع اختزان ما يعتقده مهم بالنسبة للباحث من بيانات، إذ غالبا ما كان يكتفي بالإجابة، مستعملا العبارات التالية: "ما نعرف"، "والو"، أو الاكتفاء بتحريك الرأس وبالقول "نعم" أو "لا".

2- لاحظ الباحث أن الحدث، عندما كان يشعر بضرورة الإجابة على بعض الأسئلة، التي لا يمكن له السكوت عنها، كتشخيص حوادث السرقة، التي كان فاعلا فيها، أو الإدلاء ببعض الآراء حول أصدقائه، وأقاربه، كان يلجأ إلى الاقتصاد كثيرا في الكلام، مفترضا أن الباحث سيكتفي بهذا الحجم الضئيل من المعلومات، مشيرا بسلوكه هذا، وفي نفس الوقت إلى أنه قد بلور موقفا من الباحث، ومن علاقته به، بحيث لم يحقق له رغبته التي طالما كررها حتى خلال المقابلة الثانية، وهي التأكيد المتأجج على التخلص من "سلطة المركز".

3- إن موقف الحدث هذا، كان يحتم على الباحث، بدل الكثير من الجهد، لتغيير أجواء المقابلة باستمرار، من مقصف المركز، إلى الساحة الداخلية، ثم إلى المكان المخصص للزيارة، وقاعة التلفاز، انتهاء بمكان النوم، وبدل الكثير من الجهد، والوقت، قصد إثارة الحدث مهما تشدد في موقفه.

فعلا كانت النتيجة إيجابية، إذ تم التمكن من استدراج الحدث إلى الكلام من جديد، وذلك بتغيير اتجاهه، واستمالته نحو الباحث، بحيث تم إقناعه، بأن استمراره داخل المركز، ومتابعته لتكوينه المهني في ورشة النجارة، هو الحل السليم، والصحيح للخروج من أزمته الحالية، ورسم الخطوات الأولى لتأسيس مستقبله.

هنا، تبين للباحث، أن الحدث بدأ يسترجع صورته الذاتية

الحقيقية، والتي تتناقض جوهريا مع الصورة التي ظهر بها خلال المقابلة الأولى.

فمن جهة أولى، وخلال المقابلات الموالية، كان الحدث يتحدث وعيناه مركزتان في الأرض، مع ظهور نوبات من الصمت المطبق المصحوب بالشرود.

بل حتى طريقته الخافتة في الكلام، انكشفت بوضوح، حيث تبين أنه مصاب بخلل فيزيولوجي في لسانه، إذ لا يتمكن بسبب هذا العيب، من نطق بعض الحروف بشكل سليم، إلى حد أن المتلقي كان يجد أحيانا صعوبة في فهم ما يقوله.

في هذا الاطار، لجأ الباحث إلى إعادة قراءة تقارير السلوك اليومي للحدث، حيث توصل من خلاله، إلى أن الحدث تارة يتكلم بطلاقة، ووضوح في نطق الكلمات، وتارة أخرى، وحسب حالته النفسية تنتابه لحظات من التلعثم، وابتلاع الحروف، وكانت هناك حالة نفسية داخلية، تضغط لكي تجعل السلوك اللفظي للحدث مضطربا، وغير واضح. إن الاستنتاج الذي انتهى إليه الباحث يتجلى في القراءة التالية:

انطلاقا من معطيات المقابلة الأولى، يمكن القول أن الحدث كان متحررا من نوبته، مما جعله يظهر بمظهر الطفل العادي جدا، ولعل مرد ذلك إلى اعتقاده، أن الباحث قد حضر إلى المركز ليحقق له حلمه في الخروج، والالتحاق بوسطه الطبيعي. وهنا يصبح المقابل عملة متداولة في أزمة الكلام عند الحدث. وما يبرر هذا الرأي، هو إحجام الحدث، وبشكل لاشعوري عن الكلام، بل واضطرابه بشكل فجائي، عندما انعدم المقابل من الطرف الآخر.

فإذا تم افتراض، أن الخلل وظيفي، وهذا هو الاحتمال القوي في هذه الحالة، لعدم وجود أي ملف طبي، يفيد تعرض الحدث لأية إصابة عمدية، أو غير عمدية في طفولته، فالظروف الاجتماعية، ونمط التنشئة الأسرية، التي خضع لها الحدث، يمكن أن تقدم لنا معطيات ذات دلالة "نفسيه – اجتماعية،" في تفسير ظاهرة اضطراب الكلام عند الحدث، والتي تأخذ هذا التنظيم الدوري حسب فترات متفرقة، وبدرجات متفاوتة في الحدة.

وانطلاقا من البعد الوظيفي لظاهرة اضطراب الكلام عند الحدث، وبعد القيام باستعراض عدد مهم من الأسباب "النفسية– اجتماعية"، سيتضح أن الحدث يعاني من حرمان عاطفي، بحيث عبر عنه، وبشكل صريح خلال المقابلات التي اجراها معه الباحث، لكن بأساليب الطفل الذي لا يقدر على تمثل مشاعره وتمييزها. وقد دلت معظم الأجوبة التي كان الحدث يدلي بها بين الفينة، والأخرى، والتي تبين للباحث من خلالها ما يلي:

إن الحدث كان ضحية حرمان عاطفي مزدوج، تمثل في غياب الأب ومغادرته للبيت، في انصراف الأم للعمل خارج البيت، ثم كثرة الأبناء، أشقاء الحدث، كلها عوامل ساعدت على توفير الأجواء النفسية المحبطة لنمو ظاهرة الحرمان العاطفي لدى الحدث. وهذا الإحساس بنقص وعدم إشباع في الحب، والعطف الوالدي، هو ما يعبر عنه الحدث في جملته التالية: "أنا ماكايبغيني حتى واحد." إنه موقف وجودي يختصر الأزمة الوجدانية للحدث. بمعنى أنه لا يشعر بالحب من طرف من يحيطون به.

وبالتالي فتقوقعه حول ذاته، وانغماسه في انطوائيته، يفسران الانفصال الوجداني للحدث عن المحيط الخارجي، ليظل الرابط الذي يجمعه بهذا العالم الخارجي هو الانتقام، والعمل على استرداد حقه في الحب.

– البعد العلائقي:

إن رد فعل الحدث في هذا الاتجاه، هو الجنوح الذي ظهر في سلوك السرقة، كفعل عدواني، الذي من خلاله، سيبحث الحدث عن الحصول على مشاعر تشبع فيه مرحليا، رغبته في امتلاك المحيط العام المحيط به.

إذ أن المغامرة في اقتناص ما يملكه الآخرون، وبدون مقابل، يترجم الخلفية النفسية للحدث، أي أنه لا يأخذ إلا ما يعتقد أنه بملكه، بحيث أن الأشياء المسروقة، غالبا ما يقدم الحدث على بيعها، وذلك لشراء "السندويشات"، "الحلويات"، ثم الذهاب إلى

السينما.

والحدث عندما كان ينفذ سرقاته بضواحي الحي، الذي يقطن به، فإنه ولكي يبيع المنتجات المسروقة، كان يضطر الذهاب إلى الأماكن المعروفة بالجوطيات، (سوق المتلاشيات)، وصرف عائدها هناك، وهذا السلوك يجسد الرغبة السريعة في الاستهلاك، أي تملك و احتواء ما يسرقه مباشرة.

هكذا يرى الباحث سلوك السرقة عند الحدث، في علاقتها بالحرمان العاطفي، الذي يحركها باعتبارها عامل نفسي اجتماعي، هو المحرك الرئيس لجنوح الحدث وانحرافه.

إن ما يدعم هذا الاعتقاد لدى الباحث، هو اجتماع معطيات أخرى تسير بالتحليل في نفس الاتجاه، أي في مسار تأكيد فرضية الحرمان العاطفي لدى الحدث.

ومن هذه المعطيات، علاقة الحدث بأصدقائه خارج، وداخل المركز، إنه يعاني من مواقف رفاقه الرافضة له، لأنه في نظرهم، كثير الوسخ، لا يهتم بنظافة جسمه، كما أنه لا يسرهم مرافقته، أو اللعب معه. إن موقف الرفاق هذا، لا يعمل إلا على تدعيم مشاعر الغبن، والدونية لدى الحدث، خاصة إذا ما تم ربطه ببنيته النفسية، والتي تبلورت في وسط أسري محبط.

لهذا فتكرار السرقة عنده يعكس ردود فعله، تجاه هذا الموقف الاجتماعي، الذي يرفض منحه العطف والاعتراف الكافيين، كما يساهم الوسط الاجتماعي للحدث أي أهل الحي الذي يقطنه والجيران بالخصوص، في تكريس نظرته السلبية لذاته. إذ أن الآباء يمنعون أبناءهم من مرافقته، أو اللعب معه، مخافة أن تنتقل عدوى السرقة إليهم.

وقد عبر الحدث، وبحزن عميق، عن هذا الموقف الاجتماعي، الذي وصم الحدث بصفات، أصبح هذا الأخير، يتماشى بها، باعتبارها، تمثل الدور الذي خصص له من طرف جماعته الاجتماعية، وهذا التصور يحيل على نظرية الوصم، عند دوركايم.

بمعنى أن انحسار الحدث، داخل هذا الدور، "أي السرقة"، ليس اختيارا واعيا، ومرغوبا فيه من الناحية الشعورية، بقدر ما هو تجسيد لرغبة الآخرين في تسييج ميوله الآخر، عبر ميكانيزم "الوصم الاجتماعي". و"هكذا يتم خلق مسارات انحرافية، بفعل تأثير عملية الوصم الصادرة من أفراد المجتمع، اتجاه الأحداث المخالفين [20].

فمن خلال المقابلة المتقدمة مع الحدث، صرح أنه حاول أداء واجباته الدينية، لكن سلوكه هذا قوبل بالاستهجان، والازدراء من طرف زملائه، بل وحتى من المصلين أنفسهم، الذين يعرفونه بحكم الجوار. إذ كان هؤلاء يتضايقون من حضوره داخل المسجد، مخافة أن يسرق أحذيتهم، لهذا تعرض مرارا للطرد من المسجد.

لقد استبطن الحدث تجربة النفي، والرفض من طرف الآخرين، واستبطن معها موقفا نفسيا من المجتمع، الذي قدم له من طرف المصلين، على أساس أنه فضاء لا يتشكل من أفراد لا تصدر عنهم سوى الأفعال المرفوضة، لهذا وجب الاحتياط منهم، وهذا الاحتياط سوف يتحول إلى مخاوف، انغرست في لا شعور الحدث والتي كان لها الأثر القوي في نوعية العلاقات التي يقيمها الحدث مع من يحيطون به من أشخاص.

ولقد تجلت هذه المخاوف في حرص الحدث على عدم السماح للآخرين، وخاصة رفاقه بالمركز على استعمال أدواته أو التصرف في لوازمه.

إن هذا النوع من العلاقات المشحون بالرغبة في تجنب الآخرين، خلق لدى الحدث الاستعدادات الاجتماعية والميول الانطوائية، مع ما يصاحب هذه المشاعر من إعاقة لنموه النفسي والاجتماعي، وبالتالي تثبيت ارتقائه النفسي، في مرحلة النرجسية، ورفض الآخرين على اعتبارهم "غرباء" يسببون الخوف والإزعاج.

مناقشة تحليلية

إن الدراسة الحالية يمكن اعتبارها ملامسة اختباريه لمرحلة محددة من تفاعلات الحدث الجانح، المقترف لجنحة السرقة، مع وسطه الأسري، الذي يكون من خلالها صورة سلبية عن ذاته. وبهذا المعنى لا يمكن اعتبار ما انتهت إليه هذه الدراسة من

نتائج، إمساكا نهائيا بسيكولوجية الحدث الجانح، بل تقر، بأن سمات شخصية الحدث الجانح، مقترف جنحة السرقة، والصور السلبية التي يكونها عن ذاته، لا تتسم بالثبات، بل بإمكانه الخروج من أزماته النفسية كلما توفرت لديه شروط الاستقرار النفسي، والاندماج الأسري، والاجتماعي. وهذا الأمر يظل مرهونا بمؤسسة الأسرة، والمجتمع بجميع مكوناته، ومؤسساته التربوية والتنموية.

ولقد قادتنا الملاحظات المباشرة، إلى تبني الاختيار التالي: وهو أن دراسة نفسية اجتماعية معينة، تتحدد من خلال القضايا والتساؤلات التي تثيرها حول الموضوع التي عملت فيه.

وعملا بهذا الرأي، فإن الدراسة الحالية الموسومة "بالتفكك الأسري وعلاقته بتكون مفهوم الذات لدى الحدث الجانح مقترف جنحة السرقة"، اصطدمت ببعض القضايا، لم تكن لتحضر في ذهن الباحث أثناء صياغة فرضيات البحث الحالي، قضايا برزت في شكل محيط ثقافي اجتماعي، لا يمكن فصله بتاتا عن سيكولوجية الحدث الجانح، مقترف جنحة السرقة، وبالخصوص عن آليات صياغته لتكوين صورة سلبية عن ذاته.

هكذا، تبين، وبعد الاحتكاك الشديد بالأحداث الجانحين، المودعين بمركز حماية الطفولة، أن ظاهرة انحراف الأحداث، تتطلب النظر إليها من زاوية شمولية، إذ أن مجال هذه الظاهرة، لا يقتصر فقط على المجال الحضري، بل امتد ليشمل أيضا و بشكل واضح المجال القروي.

وانطلاقا من نتائج هذه الدراسة الحالية، برز للباحث بجلاء الانعكاسات السلبية القوية، لبعض المتغيرات " المشوشة" التي لازمت تلك المتغيرات المستقلة، والمرتبطة بجوانب ضعف الوضعية الاقتصادية، وتدني المستوى الثقافي لأسر الأحداث الجانحين، والمتمثلة أيضا، في الهجرة المجسدة تباعا، في غياب أبوي الحدثين المفحوصين، موضوع دراسة الحالة للبحث الحالي.

إن الملاحظات المباشرة، والمقابلات الميدانية، جعلت الباحث يقر، بأن الثابت في المفارقة التي تميز اتجاهات الحدث الجانح، من خلال المجالين القروي والحضري، نحو نفسه ونحو الآخرين، هو أن الإهمال من طرف الآباء، وبالخصوص المتمثل في عدم دعمهم النفسي والتربوي، يعتبر عاملا حيويا في ترسيخ مشاعر الدونية، والازدراء بالذات؛ إذ يصبح الحل للتخلص من هذه المشاعر، هو الانسحاب من البيت، والانضمام إلى الجماعة الجانحة، بهدف البحث عن الاعتراف بالذات، وطلب الانتماء الاجتماعي، كتفسير لما عجزت المؤسسة الأسرية عن توفيره للحدث.

مما يدفع بالقول، أن وجود هذه الجماعة الجانحة، مرتبط بحالة عجز، وفشل المؤسسة الأسرية، في توفير الحماية النفسية والتربوية للأبناء.

بهذا المعنى، يعتبر اندفاع الحدث الجانح نحو امتصاص قيم وسلوكات الجماعة الجانحة، بمثابة إعلان عن إفلاس، وفشل أسرته، وبالتالي تلاشي تأثيرها، ودورها الفعال في التربية الملائمة، وتوفير بيئة نفسية ملائمة، تخلق لديه صورة إيجابية عن ذاته. كذلك " المدرسة"، فيمكن إدراجها في هذا السياق بهذه المناسبة، وإن لم يتم التركيز عليها في هذا البحث بشكل أساسي، إلا أنها تبقى حاضرة من خلال الإشارة إلى المتغيرات الثقافية المرتبطة بها، وهو ما أوضحته الدراسات المعاصرة، في علم النفس التربوي، كون المدرسة بدورها ممكن أن تكون عاملا من العوامل المنتجة للشخصية المنحرفة، إذا ما لم تقم بأداء واجبها التربوي، والتعليمي على الوجه المطلوب [21]. وما يعزز هذا الاستنتاج هو ما آلت إليه الدراسة التي قام بها الأستاذ خالد عبد الرزاق عن الانحراف والتمدرس، والتي توصل من خلالها إلى أن هناك ارتباط بين تدني المستوى التعليمي، والسلوك الجانح، حيث أن هذا التدني يساهم بشكل أوفر في تشكيل مفهوم للذات يسهل التوجه والميل إلى إشباع الحاجيات عن طريق السرقة مثلا، كتعويض عن الفشل الدراسي، كما أن الانقطاع المبكر عن الدراسة، يحول دون تشرب الحدث للقيم الاجتماعية، والمؤسساتية، مما ينعكس سلبا على تكوين مفهوم الذات لديه.

لذا فمفهوم، الذات يتصل بشكل إيجابي بالحدث الناشئ داخل وسط أسري، ومدرسي إيجابي، أي مشبع بخبرات، تدخل في تكوين شخصيته، واتجاهاته، وميوله المستقبلية، وبمفهوم المخالفة، تتصل صورة الذات، بشكل سلبي بالحدث المحروم من كل احتضان أسري موسوم بالدفء، والحنان، ومن كل رعاية اجتماعية، وتربوية. وما يزكي هذا الرأي، ما عبر عنه الدكتور عبد الرحمن مصلح "أن الحدث الجانح مصنوع لا مولود، فإجرام الصغار يصنعه الكبار، والحدث المنحرف ما هو إلا ضحية وسط اجتماعي سيء الوضع والتركيب" [22]. هكذا يبدو، ومن خلال الدراسة الحالية، أن الصورة السلبية للذات لدى الحدث الجانح، تعبر عن الاحباطات المتكررة، التي تعرض لها داخل الوسط الأسري، ومحيطه الاجتماعي؛ إذ أن كلتا الحالتين، موضوع دراسة الحالة للبحث الحالي، يدعيان عزمهما على التخلي عن أفعالهما المنحرفة، حيث استطاعا، اكتشاف النتائج السلبية للانحراف، وذلك بدعوى أنهما كانا ضحية أوضاع أسرية متأزمة، على جميع مستوياتها، النفسية، والتربوية، والاجتماعية، وأيضا بخصوص نقص في التجربة الاجتماعية.

وإن اختلفا في طريقة تعبيرهما، حيث برر الحدث، موضوع دراسة الحالة الأولى، رغبته الشديدة في المكوث بالمركز، "هروبا من جحيم البيت" حسب تعبيره، ويستشف من هذا التبرير، محاولة المفحوص لربط اتصال نفسي داخل مجال" اصطناعي بديل" منظم، رغم ما يعتريه من بعض الصعوبات، والذي يعاكس تماما مجاله الطبيعي، غير الثابت وغير المقنن. في حين يذهب الحدث موضوع دراسة الحالة الثانية بالتبرير، أن تواجده داخل المركز، هو بمثابة "عزلة"، ليس إلا، ولا ينظر إليه على أساس أنه مؤسسة تعمل على مساعدته لإعادة إدماجه من جديد داخل محيطه الأسري، والاجتماعي. وهذا التبرير الأخير، يستنتج من خلال الرغبة الملحة للحدث المفحوص، من مغادرة المركز، والتي تتجسد في محاولاته المتكررة للفرار، مما يدل على القطيعة النفسية للحدث الجانح مع هذا المجال "المصطنع"، والبديل، والذي لا يختلف عن بيئته الطبيعية، إلا من ناحية طبيعة ما يتصف به من "إذعان"، وفرض الانضباط، و"التأنيب المقنن".

وهذه الاستنتاجات توحي للباحث، ببعض التصورات التي يكونها الحدث الجانح مقترف جنحة السرقة، عن ذاته أثناء تواجده داخل المؤسسة الإصلاحية، إذ يشعر، وكأنه يخضع "للحرمان من الحرية"، كجزاء لفعله الجانح، داخل مجال ثان بديل.

إن هذين الخطابين، رغم تقاطعهما من حيث التعبير، فإنهما يلتقيان في تشكيل خطاب مشترك، الذي يتجسد من خلال الخطاب التقييمي السائد داخل المؤسسة الإصلاحية، والذي لا يمكن النظر إليه، أو تقييمه، إلا من خلال مدى قدرته على إحداث أثر في تصور الحدث الجانح مقترف جنحة السرقة، لوضعيته الجديدة داخل هذه المؤسسة. هذا الخطاب الذي لم يتحرر بعد من الخلفيات الاحتوائية بمفهومها الشكلي لا الجوهري، مما يجعل أثره لا يحقق الأغراض التربوية الهادفة، على الوجه المطلوب، وإن تحقق ذلك نسبيا، ويدعم هذا الطرح، المدة التي قضاها الحدثان المفحوصان داخل المركز، إذ يبدو أن هذه المدة الزمنية التي تجاوزت ثلاثة أشهر، داخل فضاء تربوي إصلاحي، لم يتحقق فيه، إلا تغيير طفيف على مستوى شخصيتهما.

لذا، وبالعودة للحديث عن البرامج التربوية، التي تقدمها المؤسسة الإصلاحية، فيمكن القول بأنها تظل منحصرة في دائرة سلوكية محضة، بمعنى أنها لا تتجاوز حدود الفعل الظاهر، والسلوك الملاحظ، ولا تحاول بالتالي النفاذ إلى البناء العميق، والداخلي للذات، أي إلى الجوانب السيكولوجية، التي تساهم في تحديد الأساليب التي يرتكز عليها الحدث في تقييم ذاته، وفي إصدار الأحكام على المجتمع، وعلى الآخرين. إذ أن الطاقم التربوي المؤطر داخل المؤسسة الإصلاحية، يقتصر على "تأنيب" الحدث الجانح، أي إشعاره بالذنب، كأسلوب نفسي، لجعله يقلع عن انحرافه، وهو ما يصب في ثوابت الخطاب الأخلاقي التوجيهي.

هكذا إذن، إذا كان الحدث الجانح مقترف جنحة السرقة، صورة لنموذج اجتماعي غير مستقر، فهذا يعني أن الباحث النفس– اجتماعي، عليه أن يأخذ بعين الاعتبار هذا المعطى، وذلك انطلاقا، من كون ظاهرة انحراف الأحداث، ليست ظاهرة مستقرة في سماتها وعواملها، بل تخضع لصيرورة البيئة النفسية، والاجتماعية، التي تطرأ على المجتمع ككل.

إن ضمن ما يسجل كحقائق في هذه الدراسة، هو تقاطع نتائجها مع نتائج دراسة الدكتور مصطفى حجازي، التي تناولت ظاهرة انحراف الأحداث، حيث تم التوصل فيها إلى أن هذه الظاهرة، ترتبط بدرجة عالية بالتفكك العائلي، والتدهور الاقتصادي، وتدني المستويات الثقافية والتعليمية، وهو ما تجلى في هذه الدراسة الحالية، كون المفحوصين موضوع هذه الدراسة، لا يحسنون القراءة والكتابة، وينحدرون من أوساط أسرية تتفشى فيها الأمية، وضعف الحالة الاقتصادية.

كما تكاد تتقاطع نتائج هذه الدراسة أيضا، مع ما توصلت إليه الدكتورة الشهابي، من نتائج ومؤشرات، على صعيد الأسرة، أو التنشئة الاجتماعية، وما يدعم هذا التطابق، هو أن بحثيها أجريا في البيئة المغربية، وهو الذي عزز ما توصلت إليه من نتائج، في أهمية دور الأسرة ومسؤوليتها في خلق، أو افتقاد المناخ المليء بالعواطف الوجدانية، والذي يعد مدخلا أساسيا في حياة الفرد نحو الجنوح، أو الانتظام في مجتمعه. فالأسرة إذن في هذه الحالة، تعد من بين الأسباب الرئيسية، والمباشرة في صياغة الذات، لدى العينة المفحوصة من الأحداث، إذ من غير الممكن، أن توجد ذات "طفولية، تتكون من فراغ، بل تتطلب وسط أسري، تتبلور فيه، وتتطور من خلاله الأبعاد النفسية، والسلوكية للحدث، كمصدر للتفاعل والاندماج مع العالم الخارجي.

لقد خلص الباحث من خلال هذه الدراسة، أن تكوين مفهوم الذات لدى الحدث الجانح مقترف جنحة السرقة، يمثل مشروعا سيكولوجيا، يتجاوز الأطروحة السلوكية في العلاج، وإعادة بناء مفهوم الذات، على تبني برنامج إصلاحي، يستند عمله على رؤية نفسية – اجتماعية، تنطلق فروضها، من المعطيات المباشرة، التي تقدمها حالات الأحداث المتفردة، والمتميزة عن بعضها البعض. وهكذا يكون الباحث قد فتح المجال لدراسة جديدة، لمشكلة "انحراف الأحداث"، تتأسس فروضها على النظريات النفسية – الاجتماعية المتنوعة، التي تؤمن بوجود عمق نفسي– اجتماعي، ينبغي النفاذ إليه، كمرحلة من مراحل العمل العلاجي، في إطار الطموح، لتغيير تمثل الفرد السلبي لذاته، وتمكينه من بناء مفهوم إيجابي لها.

وفي الختام، وبناء على النتائج التي خلصت إليها الدراسة الحالية، فإن الباحث يقترح التوصيات التالية:

– تفعيل الخدمات الاجتماعية الموجهة للأسرة وخاصة المعوزة منها، تعزيزها بأخصائيين من النواحي القانونية، والاجتماعية، والنفسية، لمساعدتها على معالجة المشاكل التي قد تهدد استقرارها وتماسكها، وتمكينها من أداء مسؤوليتها اتجاه الأبناء.

– اعتماد برامج تعليمية خاصة بالتربية الأسرية كمادة أساسية ضمن البرامج المدرسية، تمكن المتعلمين من إدخال قيم العلاقات الأسرية السليمة، وإدراك أهميتها، للوقاية من مخاطر التفكك الأسري والعلاقات الأبوية الناقصة.

– العمل على تطوير البرامج التربوية المعتمدة داخل المؤسسات الإصلاحية، مع تفعيل إجراءات الاستقبال والتصنيف والتوجيه، وتعيين أخصائيين دائمين في علم النفس، وعلم الاجتماع بهذه المؤسسات.

– وضع برامج تأهيلية تساعد نزلاء المؤسسات الإصلاحية على تطوير مهاراتهم الحركية واللغوية والمعرفية والإبداعية، مما قد يقوي فيهم الثقة في النفس، وتحمل المسؤولية، وتكوين صورة إيجابية عن الذات، وبالتالي تسهيل عملية الاندماج الاجتماعي.

– ضرورة تفعيل عملية تفريد المعاملة والعلاج للنزلاء، مع اعتماد برامج تربوية وتأهيلية تأخذ بعين الاعتبار مدة إقامة النزيل بالمؤسسة الإصلاحية (طول أو قصر المدة)، حتى تكون الاستفادة مجدية.

– العمل على توفير فرص من التوجيه والإرشاد للأسر، من

خلال تأطير الزيارات العائلية بالمؤسسات الإصلاحية، لاستحسان أسلوب الحوار، والعادات، والقيم الطيبة، بدل الموروث الاجتماعي السيء، أو المكتسب الذي يؤسس المناخ الملائم لاستمرار السلوك المنحرف.

– تفعيل نظام الرعاية اللاحقة للوقاية من العود للانحراف.

– الاقتداء بالتجارب الدولية التي أثبتت ضرورة إشراك النزيل في البرامج الإصلاحية، عن طريق مساهمته في تخطيط مدة إقامته، لتحرير فعاليته، واحتوائه، وإبعاد فكرة الفرار عنه.

– تشجيع البحث العلمي للقيام بأبحاث حول جنوح الأحداث، للتعرف على أبعاد هذه الظاهرة بعمق، وحول ظاهرة الفشل الدراسي لدى الأطفال، لما لهذه الأخيرة من دور في استفحال مشكلة الجنوح بصفة عامة.

المراجع

أ. المراجع العربية

[1] معن محسن العمر، *التنشئة الاجتماعية*، عمان، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الثاني،2010. ص32.

[2] مليكة لويس كامل، وإسماعيل عماد الدين محمد ـ *الشخصية وقياسها*، الطبعة الأولى ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1959 ص 76.

[5] فليو عبد الكريم، *مفهوم الذات لدى بعض الأطفال المتمدرسين*، كلية علوم التربية. الرباط، السنة 1992، ص. 21.

[6] د. سيدي محمد بن لحسن، "*سيكولوجية العلاقة بين مفهوم الذات والتوافق النفسي لدى المراهقين*" منشورات المعارف، الرباط، المغرب، طبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى 2008 السنة 2008. ص 49.

[7] عن د. زهران " *التوجيه والإرشاد النفسي*، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1976–. (بتصرف).

[8] والاس. د. لايين وبيرت جرين، *مفهوم الذات، أسسه النظرية والتطبيقية*، ترجمة فوزي بهلول، ومراجعة وإشراف سيد خير الله، دار النهضة، السنة 1981. ص، 10.

[9] د. جبر. أبو النجا (1996). *مفهوم الذات لدى الحدث الجانح وعلاقته بالتنشئة المدرسية*، أطروحة دكتوراه في علوم التربية، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية.

[10] د. محمد عباس نور الدين، *انحراف الأحداث والشباب، رؤية نقدية نفسية اجتماعية لواقع ظاهرة الجنوح وكيفية التصدي لها*، شركة التوزيع والنشر المدارس، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2004، ص 13.

[14] د. محمد عباس نور الدين، *انحراف الأحداث والشباب، رؤية نقدية نفسية اجتماعية لواقع ظاهرة الجنوح وكيفية التصدي لها*، شركة التوزيع والنشر المدارس، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2004، ص 13.

[15] د. سعيد بحير، *الإرشاد السيكولوجي للأسرة*، مطبعة أنفو، الطبعة الأولى، فاس، 2004، ص 56.

[17] المؤلفون، د. غالي أحرشاو، و د. أحمد اوزي، وآخرون، *سيكولوجية الطفل، مقاربات معرفية*، مطبعة النجاح الجديدة: الرباط، الطبعة الأولى، السنة 2008. ص، 60.

[18] مصطفى حجازي، *سيكولوجية الإنسان المقهور، "التخلف الاجتماعي"*، معهد الإنماء العربي، فرع لبنان، الطبعة الرابعة، بيروت، 1986. ص. 37.

[21] شرماط العربي، باحث بمركز الدكتوراه، بجامعة محمد الخامس، كلية علوم التربية، الرباط، مقال علمي بعنوان *"مقاربة اجتماعية لانحراف الأحداث، دراسة ميدانية بمركز حماية الطفولة بالمغرب"، المجلة التربوي الدولية المتخصصة*، العدد الثاني، المجلد الثالث، شباط 2014، ص 39.

[22] د. عبد الرحمن مصلح الشرادي، *انحراف الأحداث في التشريع المغربي*، دار النشر الطبعة الأولى، 2002، ص. 31.

ب. المراجع الاجنبية

[3] Hall, C' S' and Lindzey'G. 1975. P116. *Theories of personality second printing*. Jhon wiley and Sons'inc.

[4] Alport**.** *Structure et développement de la personnalité*. «Neuchatel de lacan et Niest. 1980. P.118.

[11] lauze (J.P), *L'enfant voleur*. PUF. Paris 1996.

[12] lauze (J.P), *L'enfant voleur*. PUF. Paris 1996.

[13] CORDEIRO (J.C.), *L'adolescent et sa famille*. Édition Privat, Toulouse 1975. P. 80.

[16] Denis. M, *image et cognition*; Paris. PUF.

[19] Berthe Raymond River, *le développement social de l'enfant et de l'adolescent* 21 ème édition, revue augmentée, éditeur, Pierre Mardaga, 2 galerie des Princes Bruxelles, 1986. P 221.

[20] Blatier C. 2010. *Introduction à la psychocriminologie*, Dunod Paris, P, 66.

FAMILY DISINTEGRATION AND ITS RELATIONSHIP WITH BUILDING THE CONCEPT OF THE SELF FOR THE JUVENILE DELINQUENT WHO COMMITS A THEFT MISDEMEANOR -FIELD STUDY-

Larbi CHARMATE
Researcher at the doctorate studies center
Faculty of educational sciences - Mohammed V University - Souissi – Rabat
Kingdom of Morocco

Abstract *_ The current study attempts to investigate the role of family education in fashioning the concept of the self as regards the delinquent subject who commits misdemeanor theft, taking into consideration that the family is the essential power which directs the delinquent subject's life either towards self-building or self-destruction. It is worth pointing out that the researcher employed a "case study" in this conducted research along with the direct interviews and observations. Concerning the study sample, it consists of two examples from the delinquent subjects who constitute the research community, that is, the people who commit the misdemeanor thefts, whose age does not surpass eighteen years old, and who are into the custody of the childhood protection center.*

The most important results of the study revealed that the examined sample lived in a loose family environment, characterized by the absence of the father, the negative relationship between the parents, and a rude treatment of the children.

Among the most important suggestions proposed by the study are: First, It comes to enable the social services directed to families especially the underprivileged ones reinforcing it with specialists from the legal, social, and psychological fields. Second, it adopts educational programs concerned with family education as an essential field in the school programs. Third, it aims at developing the educational programs employed into the correctional facilities, and last it enhances the post-correctional supervision.

Keywords *: family disintegration, the self, the juvenile, the delinquency, the theft.*